اليهود

يحرقهم ما يحدث حولهم، ويموتون كل يوم بغيظهم.. إنهم يشرَقون بهذا النبي وبمن معه.. مع أنه كان يتقرّب إليهم.. كان يحبّ هدايتهم، فهم كغيرهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم إلى الحق، بل كان ﷺ يشعرهم بأنهم أقرب من غيرهم إلى الإسلام - ومع أن القرب لا يكفي أبداً - فقد كان ﷺ يشعرهم بذلك..

وكان (يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء)[1] فـ (كان أهل الكتاب يسدلون شعورهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته)[2].

لكن اليهود لا يريدون استيعاب أي شيء من محمد ﷺ.. إنهم يفضلون البقاء في معسكرهم، ولن يغادروه إلا إذا أرسل الله نبياً يهودياً يلتزم بأوراق هذه التوراة الممزقة، وكان لليهود تعاليم سلمت من التمزيق أقرها الإسلام ولم ينكرها.. من هذه البقايا:

قصة صيام يوم عاشوراء

وهو العاشر من شهر محرم (يوم عاشوراء كان يصام في الجاهلية)[3] و(أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء)[4] ومنهم (قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه. فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه)[5].

وتقول عائشة: (كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان وكان يوما تستر فيه الكعبة)[6] فـ (ذكر عند رسول الله ﷺ يوم عاشوراء فقال رسول الله ﷺ: «كان يوماً يصومه أهل الجاهلية، فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه، ومن كره فليدع»)[7] وليس

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام، صيام عاشوراء (١٢٠).
(٤) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٣).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥) ومسلم واللفظ له، الصيام (١١٨).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-٥٧٨.
(٧) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٤).

أهـــل الجاهلية فقط هم من يحتفي بذلك اليوم (إنـــه يوم تعظمه اليهود والنصارى)[1] وكان يهود خيبر أكثر احتفاءً من غيرهم فـ(هم يصومون يوم عاشـــوراء، يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم)[2].

لكـــن ما علاقة ذلك كله باليهود، وهل كان رســـول الله ﷺ مقلداً لأهل الجاهلية وأهل الكتاب.؟

دونمـــا تردد الإجابة: لا، فمحمد ﷺ جاء وحيـــاً.. لا ينطق عن الهوى، ولا يملك أن يشـــرع من عند نفسه، وإذا كان سياق الحدث فيه موافقة للجاهلية ولليهود، فهؤلاء القـــوم كالغريق بين الأمواج.. مرةً يتنفس هواءً كالحياة، ومـــرةً يتنفس ماءً، أما الثالثة فيتنفس فيها موتاً.

ومحمد ﷺ كان يتنفس هواءً نقياً، ويتفوه وحياً وعطراً.

اســـتغرب رســـول الله ﷺ صيام اليهود لذلك اليوم، فكانت هذه القصة التي ســـجلت كـــم كان ﷺ ودوداً.. كم كان محباً لإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والســـلام، وكم كان محباً لنبي اليهود موســـى عليه الصلاة والســـلام، فلقد (قدم ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومومه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه.

فقال رســـول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ وأمـــر بصيامه)[3] لأن الله أمر بصيامه.. لا لأن يهوداً صاموه، فالمســـألة هنا مختلفة، وليست كالحالة الأولى -حالة فرق الشعر وتسريحه - فالصوم عبادة، وأي عبادة كانت فهـــي محرمة في الإســـلام، إلا إذا جـــاء دليل من كلام الله أو كلام رســـوله ﷺ يأمر بها أو يحث عليها، وهكذا يبقي الإســـلام العبادة جديدةً صافيةً تســـتقى من النبع، لا

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٩).
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٦).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (الصوم ١٣٤).

من ترسبات التاريخ والأهواء والفلسفات، وهذا ما أغاظ اليهود، وجعلهم من ثقوب حصونهم يترقبون، ويتطلعون إلى أي خطأ قد يحدث منه ﷺ، أو من أحد الصحابة، وها هو أحدهم يجد ما يريد:

يهودي ينتقد المسلمين

فقد سمع هذا الرجل بعض الصحابة يقولون: ما شاء الله وشئت. وبعضهم يقول إذا حلف: والكعبة.

فرح اليهودي بما سمع فأطلق قدميه ولسانه تجاه رسول الله ﷺ منتقداً هذا النوع من الشرك، و(أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون[1] وإنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة)[2].

سمع رسول الله ﷺ هذه الكلمات من اليهودي وتأثر بها، لكنه لم ينفجر في وجهه.. لم يقل له: من أنت حتى تعلمنا ديننا!

لم يقل له: لماذا لا تنصحون أنفسكم أيها اليهود، وأنتم تقولون (عزير ابن الله)

لم يقل: أنت لست من أهل العلم حتى نستمع إليك.

لم يقل هذا شأن داخلي فيما بيننا، ولا نقبل النقد سوى من جماعتنا الذين هم على ديننا.

لم يتفوه ﷺ بشيء من ذلك، بل ضرب لأتباعه المثل الأعلى في قبول الحق، وأن الحق يقبل من أي شخص كان حتى لو كان عدواً حاقداً، ويضرب المثل الأعلى لتقبل الآخر ونقد الآخر.

استمع ﷺ لهذا النقد اللاذع وقبله، ثم توجه نحو أصحابه بهدوء ودون انفعال مصححاً ذلك الانحراف الخطير و(أمرهم النبي ﷺ إذا أردوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة)[3].

---

(١) تجعلون لله نداً ومثيلاً وشبيهاً.

(٢) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

(٣) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

وكررها ﷺ قائلاً لهم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[1] مهما كان فلان هذا. وقال أيضاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت»[2].. «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد. ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»[3].

وبيّن خطورة ذلك فقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[4]

امتثل المسلمون فذهبوا بالأجر، وذهب رسول الله ﷺ بالصحابة والأجر ينسابون كالنور.. كالنهر.. يغسلون تلك الزوايا التي تخثرت فيها بقايا الشرك. وذهب ذلك اليهودي بغيظه يجره، ويجر قدميه الثقيلتين ورأسه المتحجر، فلقد انتفع المسلمون بالحق والنقد، ولم ينتفع هو بشيء، بل أضاف إلى رصيد اليهود عناداً آخر.. أضاف مساحةً بينهم وبين المسلمين.

اتضحت تلك المسافة، وبانت تلك المفارقة عندما كان رسول الله ﷺ مهموماً يفكر ويفكر، ويبحث عن وسيلة ينبه بها المسلمين إلى دخول وقت الصلاة فـ:

كيف ينادي إلى الصلاة

لقد (اهتم النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك. فذُكر له: القنع - يعني الشَّبُّور (شبور[5] اليهود) فلم يعجبه ذلك وقال: هو من أمر اليهود.

فذكر له الناقوس، فقال: هو من أمر النصارى)[6].

---

(١) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني).
(٢) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير).
(٣) حديث صحيح. (المصدر السابق).
(٤) حديث صحيح. (المصدر السابق).
(٥) الشبور: هو البوق الذي ينفخ فيه.
(٦) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨).

لم ينزل وحي بهذا الشـــأن، والحيرة تملأ الجميع.. اجتهد الرســـول ﷺ اجتهاد البشر (ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب للمسلمين)[1] في وقت الصلاة. أمر ﷺ بذلك وهو كاره له.

عرف ذلك في وجهه أحد الأنصار الذين حضروا ذلك الحوار واســـمه: (عبد الله بـــن زيـــد بن عبد ربه) (فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهمٍّ رســـول الله ﷺ)[2]، وكان بـــين حرات المدينة من يحمل الحل.. إنـــه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنه بالتأكيـــد لـــم يكن حاضراً ذلك النقاش، لذلك لم يقل ما عنده، ولم يقص على أحد ما رآه في منامه.

انصرف الجميع وخيم الليل على المدينة، وانتثرت نجومه فوق نخيلها، ونام رسول الله ﷺ ونام الجميع، ونام عبد الله بن زيد، وبينما هو منســـرب في أعماق النوم وجد في تلك الأعماق رجلاً يطوف به:

رجلٌ من حلم وأذان من وحي

يقص عبد الله رؤياه فيقول: (لما أمر رســـول الله ﷺ بالناقوس يعمل، ليضرب به للنـــاس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوســـاً في يده، فقلت: يا عبد الله.. أتبيع الناقوس؟

قال: وما تصنع به..؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة.

قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟

فقلت له: بلى.

قال: تقول:

الله أكبر.. الله أكبر..

---

(١) حديـــث صحيح. رواه ابن إســـحاق.. وهو من الطريـــق الصحيحة التي عند أبي داود... وابن إســـحاق لم يدلس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨)...

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة... حي على الصلاة

حي على الفلاح... حي على الفلاح

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقمت الصلاة:

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة.. حي على الفلاح

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله..

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته بما رأيت.

فقال ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن، فإنه أندى صوتاً منك»[1].

وبذلك يجعل السنة لأمته في اختيار المؤذن هو حسن الصوت.

ونظراً لأن عذوبة الصوت تزيد القرآن والأذان جاذبية وجمالاً.. كان ﷺ يقول: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] ويقول: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[3] ولعذوبة صوت بلال فقد جعل الأذان من نصيبه رضي الله عنه.

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٩/٩٨).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

وهـــا هو صوت بلال الذي ملأ شـــوارع مكـــة: أحدٌ.. أحدٌ.. هاهـــو عذباً كأنهار الحبشـــة.. حراً كطيورها.. ينساب في ســـماء المدينة يوقظ فجرها.. يوقظ شمسها، وينادي المهاجرين والأنصار، ويسحرهم بصوته.

يقول عبد الله بن زيد: (فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجر رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رســـول الله، لقد رأيت مثل ما رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد»)[1].

لا بد أن ابن الخطاب رضي الله عنه لم يحضر تلك الآراء والاقتراحات وإلا لتكلم بمـــا رآه، فقد (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشـــرين يومـــاً، ثـــم أخبر النبي ﷺ فقال له: ما منعك أن تخبرني. فقال: ســـبقني عبد الله بن زيد فاستحييت)[2].

إذاً لا بـــوق.. لا رايـــة.. لا أجراس. لكنه التوحيد.. حمله طيفٌ جميل (عليه ثوبان أخضران)[3].

فرحـــة جديدة للمؤمنين، وتميز جديـــد. فرحة لعبد الله بن زيـــد، فرحة لعمر.. وصوت بلال يتدفق منعشاً في شوارع المدينة وسمائها، ولم يكن هناك مئذنة للمسجد، ولا منارة، ولكن:

فرحة لامرأة من الأنصار

وشـــرف تتغنى به، وتنافس بـــه تلك الأنصارية التي بنت المنبر لرســـول الله ﷺ. امرأة من بني النجار جعلت من بيتها نبعاً للنداء الجديد.. جعلت من كل بيتها موضعاً لقدمي بلال وصوته.

تقـــول تلـــك المرأة الكريمـــة: (كان بيتي من أطول بيت حول المســـجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسَـــحَر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه

---

(١) هذا الحديث بقية حديث أبي داود (٩٩).

(٢) حديث صحيح. صحيح سنن أبي داود (٩٨).

(٣) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

تمطى[1]. ثم قال: اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، ثم يؤذن. والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة. يعني هذه الكلمات)[2].

وتصحو المدينة.. المدينـــة كلها على ذلك الصوت الندي، وتنتعش وتتوضأ. المدينة كلها.. إلا بيوتاً ترتج مفزوعة الجدران والقلوب.. شاخصة الأعين، فصوت بلال رصاص يخترق بيوت يهود، وجدران عبد الله بن سلول وأمثاله.

أما قريش فقد أدركت أن اليهود وأصحابهم من المشركين قد تورموا حقداً وترقباً، وقـــد حان الوقـــت لتفجير ذلك الورم في وجه محمد ﷺ ووجـــوه أصحابه. لقد حان تحويـــل حرات المدينة إلى أودية من الدماء والحروب، والثارات التي لا تنتهي. فجاءت شرارة تلك الحروب مغلفة برسالة مستفزة من قريش.. جاءت لتجعل من:

المدينة حريقاً ومذابح

كانت تلك الشرارة حروفاً مشتعلةً، رسالةً تتقد تهديداً ووعيداً. رسالةً تبشر بالمقابر. فـ(كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان، من الأوس والخزرج - ورسول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر -: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم.

فلمـــا بلغ ذلك عبد الله بن أبي[3] ومن كان معه مـــن عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبـــي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقـــد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ. مـــا كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفســـكم! تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!! فلما ســـمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[4] فتفرق الشر وهدأت الأنفاس،

---

(١) أي تمطى الفجر وامتد نوره في الأفق.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود (٥١٩): حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار: ابن إسحاق سمع شيخه الثقة الذي مرمعنا، وعروة غني عن التعريف والمرأة صحابية من الأنصار رضي الله عنها.

(٣) هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو ما يزال على شركه مجاهراً معانداً...

(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٢ - ١٧١ حدثنا محمد بن داود بن سفيان ثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: عن رجل من أصحاب النبي وقد رواه عبد الرزاق ٥-٣٥٨ وقد انقلب عنده اســـم التابعـــي والصواب ما في أبي داود، فعبد الله بن عبد الرحمـــن لم يرو عن الصحابة والزهري ليس من شيوخه، والصواب ما في أبي داود، رغم ضعف شيخه. صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود.

وسكنت الأنفس المشحونة بالشر، وسلمت المدينة من حرب أهلية، ومعركة كادت تطحن أهلها وجدرانها.

كلماتٌ قليلة وهادئة أعادت السيوف إلى أغمادها.. أعادت العقول إلى رشدها، وخذلت قريشاً، وخذلت اليهود المتربصين خلف شقوق الأبواب، وتم الحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الوليدة من حركة عسكرية كادت تعصف بأحلامها وشبابها، فالمدينة بحاجة إلى تلك الأحلام وإلى ذلك الشباب، وإلى قائد عظيم وحكيم فكيف بهذا النبي العظيم الحكيم ﷺ. ولم تكن يوماً من الأيام عطشى إلى تلك الدماء.. التي أدمنت سفحها أياد تمسحت بالجاهلية والأصنام، ولن تسفك قريش مهما حاولت أكثر مما سيسفكه أهل المدينة بأيدي بعضهم البعض.. الأوس يدركون ذلك جيداً، والخزرج ليسوا بأقل وعيا منهم بذلك، وخطوات قليلة إلى المقابر الجماعية لضحايا (بُعاث) تذكرهم متى ما تسلل النسيان إليهم.

إذاً فقد هدأت الأنفس بعد يوم مشحون، ونامت المدينة كطفل على تلك العبارات الحانية كصدر أم حنون، وقدم النبي عليه السلام مفهومه للمواطنة في الدولة الإسلامية.

مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية

خطاب النبي ﷺ لهؤلاء الوثنيين وعباد الأصنام كان خطاباً تصالحياً راقياً مع الكفار، فقد احتواهم في دولته، ولم يفرح بفرصة تصفيتهم والقضاء عليهم وإقصائهم وهو قادر على ذلك، فزعماؤهم معه، ومعه أعداد غفيرة متوثبة من المهاجرين، لكنه لم يفعل ذلك، بل جعلهم ضمن النسيج الوطني في دولته، فهدَّأ ثورتهم، وطيب خواطرهم، وفرش لهم المدينة ورداً وربيعاً من الأمن والسلام والمصالحة، رغم أنهم على الشرك وعبادة الحطب والخشب والحجارة، ورغم أنه بعث لنشر التوحيد والدفاع عن نشره، ورغم أن زعماءهم أعطوه بيعتهم على الحرب والسلم، لكنه عليه السلام يقدم مثالا على التفريق بين أخوة الإسلام ومفهوم المواطنة، وأنه مع الفارق الشاسع بينهما، إلا أن لكل مفهوم حقوقه وحدوده، وأنه يحرم إضرام النار بين المفهومين.

حال عليه السلام بين أمن دولته وبين أعدائها، وقطع الطريق على من يريدون إثارة الفتنة، وإشعال الحرب الأهلية، فلا إكراه في الدين، ولكن هناك إكراه في المواطنة، فمن لم يرد الدين فله ذلك، ومن لم يرد الوطن فالأوطان كثيرة، لكنه سيشهر السيف في وجه كل من سيشهر سيفه في وجه الدين أو الوطن.

أشرقت الشمس من جديد على هذه المدينة الراقية، والدولة المتحضرة.. وأشرق الوعي يحمل تعليمات جادةً وأعيناً أكثر اتساعاً على المستقبل والآفاق، فالمدينة.. المدينة وأهلها في خطر، وتوقعات أبي بكر الصديق ورؤيته الثاقبة بدأت تتشكل على أرض الواقع، فـ:

ماذا توقع أبو بكر؟

منذ أكثر من عام.. عندما أخرج من مكة مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم المرير، وقريش ثائرة الأنفاس مغبرة الأقدام والجياد.. تبحث عن محمد ﷺ وصاحبه وبقية أصحابه، في تلك الساعات الخائفة (لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال)[1].

وصدق أبو بكر، فتلك الرسالة شرارة، والمدينة أمست في خطر، والهشيم يحيط بها من كل ناحيةٍ، وفي قلوب المشركين واليهود يتكوم هشيم أخطر، ولا بد من الاحتراز والاحتياط.. لا بد من السلاح في جو مكفهر بالسلاح والشرك، فهب الصحابة رضوان الله عليهم لـ:

حراسة رسول الله ﷺ

ذات ليلة كانت عائشة إلى جانبه ﷺ، وكان السهر إلى جانبهما أيضاً. قلقت عائشة رضي الله عنها، فما الذي حدث؟

---

(١) سنده صحيح. رواه الطبراني في تفسيره (١٦٠/٩) من طرق عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ومسلم البطين هو ابن عمران وهو ثقة من رجال الشيخين وشيخه إمام من أئمة التابعين ومجاهديهم... وهو على شرط الشيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٧٩/٣).

تقول رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟

قال ﷺ: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة».

فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح. فقال ﷺ: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك.

فقال ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت عائشة: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه)[1] بعد أن تطوع سعد بن أبي وقاص لحراسته ﷺ.

لم يكن الخطر سهماً واحداً نحو رسول الله ﷺ، بل كان أسهماً ورماحاً منطلقة نحو كل مؤمن.. نحو كل أنصاري ومهاجر، ولا بد أن يكون الحذر دائماً. وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة لأتباعه لذلك صار:

السلاح صباحاً.. السلاح مساءً

صحابي آخر اسمه (أبي بن كعب) يقول: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)[2].

سؤال يرتعش خوفاً من هذه الجموع التي اتجهت بخيلها ورجلها، ورماحها وأوثانها نحو مدينة التوحيد الوحيدة. سؤال مُثقل بحمل السلاح والخوف؟ فنزلت الإجابة وحياً.. قرآناً وبشرى.. نزل الوحي يحمل الأرض... كل الأرض، والدنيا.. كل الدنيا مشرعة الأبواب لمحمد ﷺ وأصحابه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ لأحمد ٦-١٤١.

(٢) سنده حسن. رواه الطبراني (مجمع البحرين ٥٨/٦) والبيهقي ٣-٦ واللفظ له: أحمد بن سعيد الدارمي ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي: أبو العالية تابعي ثقة وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف التقريب ٢١٠ و٢٠٥ والحسين ثقة من رجال مسلم وابنه حسن الحديث التقريب ١٦٩ وأحمد ثقة حافظ.

يقــول أبي ابــن كعــب: (فنزلــت: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾)[1].

آيــات تتنزل بالأعيــاد والفتوح والبشــرى.. أخذها الصحابة واستبشــروا بها..

أخذوها كما يأخذون ســلاحهم ليل نهار، فرســول الله ﷺ علمهم أن هناك فداءً، وأن هناك تضحيةً وهدفاً، والهدف لا يأتي لمترددٍ، أو جبان أو خائف. خاصةً في مثل هذه الظروف، فالمؤامرة تطل كالوحش فوق رؤوس الجبال على حصن الإسلام الجديد، فلا بد من التحرك.. لا بد من عمل شيء يحمي المدينة ويعيد المظالم إلى أهلها، ويزيح ليل الأصنام الهائل عن عقول وقلوب البشــرية وأجيالها، ولن يكون ذلك بالصلاة والدعاء والمعجزات وحدها.. لا بد من:

نشاط عسكري

فلن يمكِّن الله عباده ما لم يقوموا بتحويل دنياهم إلى حركة تلهج بـ(لا إله إلا الله وحده لا شــريك له.. محمد رســول الله وخاتم النبيين) بدءا من أنفسهم، حتى تتسق وتتناغم مع حركة الكون كله.. المسبح بحمد ربه ليل نهار.

حمل الصحابة تلك البشرى وحملوا شروطها، فحولت ضعفهم قوةً، وخوفهم أمناً وثقة. فهاهو سعد بن معاذ يتجه إلى مكة الطاهرة.. كالتحدي يتفجر بين أصنام قريش وسيوفها.. ثقةً يتحدى، وثقةً يهدد، فيتحول صناديد وطواغيت قريش حوله إلى خراف ترتجف خوفاً، وتتصبب عرقاً.

(انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أمية بن خلف - أبي صفوان- وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد. فقال أمية لسعد: ألا انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت.

---

(١) المصدر السابق.

فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟

فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم.

فتلاحيا بينهما.. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام[1].

فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك - وجعل يمسكه- فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمد ﷺ يزعم أنه قاتلك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال والله ما يكذب محمد إذا حدث)[2].

أصيب أمية بالرعب والهلع بعد أن بشره سعد بالقتل. يحدثنا سعد عن ذلك فيقول: أنه (قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة[3]، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان[4] ما رجعت إلى أهلك سالماً.

فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا، لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم - سيد أهل الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قاله لي سعد؟

قالت: وما قال لك؟. قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية والله لا أخرج من مكة)[5].

---

(١) طريق تجارة قريش إلى الشام وهو يمر بالمدينة أو قربها.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦٣٢).

(٣) يقصد المهاجرين الذين تركوا دين آبائهم وأجدادهم.

(٤) أبو صفوان هو أمية بن خلف.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) (ص٨١٢).

لقد شلت كلمات سعد الواثقة بالله وبرسوله ﷺ.. شلت هذا الطاغية، فأمسى لا يرى سوى الموت يتربص له في منافذ مكة.. لقد جعل خوفه الأرض.. كل الأرض قبراً يحاصره، ويحاصر مكة معه. أما ذلك الشاب المهاب سعد بن معاذ، فعاد إلى حبيبه ﷺ وهو أكثر قوة ويقيناً.. عاد ليجد المدينة غير المدينة.. عاد لينقل ما رآه وما سمعه من خوف يملأ طغاة مكة، عندما هددهم بقطع طرق قوافلهم إلى الشام، وهي شرايينهم وأوردتهم. عاد لينفذ تهديده، فقد منعه أبو جهل، وعلى أبي جهل أن يتحمل ثمن تهوره وجاهليته الحمقاء. أما رسول الله ﷺ فكان أسبق من سعد إلى هذا التفكير، لقد قرر ﷺ أن يجعل للمدينة قوتها التي تُشعر الآخرين بمنعتها، وتشعر قريشاً خاصة.. أن هذا الدين الجديد صار خطراً يهدد صلف وتسلط شركها، ودروب قوافلها، بل ومكانتها بين العرب، عندما قصدها:

غزوة العُشَيرة

وهي أول غزوة بدأها ﷺ وقادها[1]، وليس لدينا تفاصيل صحيحة عن أحداثها، والعُشيرة قرب ينبع.. على طريق قوافل قريش، وهي أول تهديد عملي لقريش وقوافلها التي سلبت المهاجرين كل أموالهم، ووصف الله معاناتهم بأنهم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم. كما غزا ﷺ:

غزوة الأبواء

ليس لدينا تفاصيل موثقة عنها، ولكن وقوعها ثابت في مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة، ذلك المكان الذي وقفت فيه المطايا بمحمد ﷺ وهو طفل صغير، وقفت

---

(١) ورد أن الأبواء هي أول غزوة لرسول الله ﷺ لكن هذا غير صحيح، فالرواية في ذلك ضعيفة رواها كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده... وكثير هذا ضعيف. وهناك رواية أخرى عن عروة وقد وصلها ابن عائذ لكنها من طريق ابن لهيعة.. وليس فيها أن الأبواء أول غزوة بل إن سعداً، أول من رمى سهماً في سبيل الله، وهذا صحيح ولكنه ليس دليلاً على أن الأبواء أول الغزوات لأن العشيرة -عند المؤرخين - لم يحدث فيها قتال ولم يرم بها بالسهام. أما كون سعد أول من رمى بسهم فقد جاء على لسانه هو ولم يذكر رضي الله عنه متى كان ذلك والرواية عند الشيخين وستمر معنا.

فيه المطايا تودع أمه التي فقدها هناك وغابت عن عينيه وعن الدنيا حيث دفنت هناك. ذلك المكان الذي أبكاه ﷺ كان موعداً لغزوةٍ لا نعرف أحداثها الصحيحة بعد، لكنها موجهة لقريش التي بدأت التهديد، وهي نوع من الاستطلاع العسكري بالقوة، لرصد تحركات العدو وخطره، أكسبت الصحابة خبرة جديدة في الكشف عن طبيعة الأرض والأعداء المحيطين بدولة الإسلام الجديدة.

كانت تلميحاً لمن تسول له نفسه غزو المدينة والغدر بأهلها، فأزعجت تلك التحركات قريشاً، لكن رسول الله ﷺ كان يعد لهم مفاجأة.. سرية بقيادة صحابي عظيم هو أبو عبيدة، والذي حاز لقباً عظيماً فيما بعد هو: أمين الأمة. فما قصة تلك السرية:

سرية نخلة

(بعث ﷺ رهطاً، فبعث عليهم أبا عبيدة، فلما أخذ لينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فبعث رجلاً مكانه يقال له: عبد الله ابن جحش)[1].

حرارة الشوق أبكت أبا عبيدة، وحبه لملازمة رسول الله ﷺ جعلت رسول الله ﷺ يشفق عليه ويبقيه جواره، ليعين قائداً عظيماً. فـ (بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب، [مقفلة من بدر الأولى] وبعث معه بثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين:

من بني عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

ومن بني أمية بن عبد شمس ثم من حلفائهم: عبد الله بن جحش بن رئاب - وهو أمير القوم- [وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بني أسد بن خزيمة].

---

(١) سنده قوي.. رواه الطبري ٤-٣٠٧ وابن أبي حاتم ٢٠٦٤: وغيرهما من طرق عن معتمر بن سليمان عن أبيه، حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله. أبو السوار العدوي تابعي ثقة واسمه حسان بن حريث التقريب ٦٤٦. وتلميذه الحضرمي حق لا بأس به التقريب ١٧١ أما معتمر ووالده فثقتان معروفان.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان، حليف لهم.

ومن بني زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص.

ومـــن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة -حليف لهم- وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة [وخالد ابن البكير - أحد بني ســـعد بن ليث، حليف لهم].

ومن بني الحارث بن فهر: سهل بن بيضاء.

فلما ســـار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب ونظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فســـر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشـــاً وتعلَّم لنا من أخبارهم.

فلمـــا نظر عبد الله بن جحش في الكتاب: قال ســـمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع.؟ فأما أنا، فماضٍ لأمر رســـول الله ﷺ. (فرجع رجلان ومضى بقيتهم)[1].

فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: (بُحران) أضل سعد ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا عليه يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابـــه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً، من تجارة قريش فيها منهم:

عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقدنزلوا قريباً منهم.

---

(١) هذه العبارة ليست في السياق بل هي جزء من الحديث الصحيح السابق. وفي السياق سبب رجوع هذين الصحابيين... وهو أنهما فقدا بعيرهما.

فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وقد كان حلق رأسه - فلما رأوه أمنوه، وقالوا: عُمّار، فلا بأس علينا منهم.

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من جمادى، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام.

فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، [وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم] وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة.

[وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ ما غنمتم الخمس، وذلك قبل أن يفرض الخمس من الغنائم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها على أصحابه]، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: [«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام، ولم تؤمروا بقتال].

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى.

[وقالت يهود تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، واقد بن عبد الله وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك وبهم] فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على

رسـوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين)[1]. وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي طعن أبو جهل أمه واغتال أباه ضمن تلك السرية.

يحدثنا عن ذلك ابن مسعود وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم فيقولون في قوله تعالى: (﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم: عبد الله بن جحش وفيهم: عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، وسهل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب.

وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل (بطن ملل)، فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه:

أنْ سِرْ حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فسـار، وتخلف عنه سـعد وعتبة أضلا راحلة لهما، فأقاما يطلبانها، وسـار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسـان، والمغيرة بن عثمان، وعبد الله بن المغيرة.

---

(١) حديـث صحيح عدا مـا بين المعقوفين.. رواه الطبري تفسـير (٢/٣٦٠) واللفظ له والبيهقي في الدلائل (٣/١٧-١٨) عـن عروة مرسـلاً وهو صحيح إلى عروة لكن لم يذكر شـيخه من الصحابة... والحديث له شاهد عند الطبراني (٢/١٧٤) وابن أبي حاتم (سيرة ابن كثير ٢/٣٧٠) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه: حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله: عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح.. كما رواه الطبري في التفسير (٢/٣٦٢) وأبهم الحضرمي فقال: إنه حدثه رجل عن أبي السـوار وقال الهيثمي في المجمع (٦/١٩٨)/ رجاله ثقات... وله شواهد كثيرة عند الطبري (٢/٣٦٣) عن ابن عباس... وأبي مالك الغفاري.. وعن الزهري وعثمان الجزري ومقسم مولى ابن عباس... أما ما بين معقوفين مثل تصرف ابن جحش في الغنائم وقول يهود فهو مرسل... والحديث يشهد له ما بعده.

فذكـــر قتل واقد لعمرو بن الحضرمي، ورجعوا بالغنيمة والأســـيرين، فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون، وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من اســـتحل الشـــهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى)[1].

وسواء قتل ذلك المشرك في جمادى، أو في رجب، فرسول الله ﷺ لم يأمر بذلك. إنما هي حماســـة المهاجرين المقهورين، المطرودين مـــن ديارهم وأموالهم، ولا ذنب لهم سوى أن يقولوا: لا إله إلا الله. لم يتمالكوا أنفسهم - وهم بشر - عندما رأوا أموالهم التي غصبتها قريش واغتصبتها.. تســـيل أمامهم تجارةً تنمو بين أيدي المشركين، وهم الحفاة الذين تشققت أقدامهم من العوز والفقر، وأضناهم الجوع والتعب.. إنك تبحث بين هؤلاء الرفقة.. تســـألهم أين سعد بن أبي وقاص؟ أين عتبة بن غزوان؟ ألم ينطلقا معكم من المدينة..؟

فتأتيك الإجابة حســـرةً: لقد انطلق سعد وعتبة وسارا مع السرية، لكن على جملٍ واحد جاءا.. يركب أحدهما، وينزل الآخر. ويركب الآخر فترة ليمشي صاحبه. أما الآن فلا جمل لهما، لقد ند وهرب وهما يركضان على أقدامهما المتشققة خلفه.

يذرعان بطون الأودية والشعاب، ولا أحد غير الله يعلم ما سيحدث لهما.

ما موقف الإنسان.. أي إنسان يرى أموال سارقه وقاتل أمه وأبيه أمام عينيه بينما هو يأكل ورق الشجر من الفقر.؟

ما موقف الإنســـان.. أي إنســـان حافي القدمين يبحث عن جمل، ثم يرى جماله المسلوبة منه تتقاطر بالمال، بينما تتقاطر قدماه بالدماء؟ ما شعور سعد المشرد الفقير الذي يصف الأجواء التي عاشها في مثل تلك المهمات الصعبة فيقول: (إني لأول العرب

---

(١) ســـنده قوي. رواه السدي (تفسيره ابن كثير ٢/ ٣٧٠) عن أبي صالح عن ابن عباس وهذا ضعيف من أجل أبي صالح وهو (باذام) لكن الســـدي رواه من طريق أصح عن مرة عن ابن مســـعود وجماعة من الصحابة، ومُرَّة بن شراحيل تابعي كبير ثقة. وهو صحيح بما قبله.

رمى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشّجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خلط)[1].

إن رجلاً لا يجد سوى ورق الشجر لمعذور أن ينهب ما يسد به رمقه، ويدفع به الموت عن نفسه، فكيف إذا كانت تلك الأموال أمواله وأموال أصحابه المسلوبة.

وبعد هذا كله لا يعذرهم عليه السلام، وينتظر حكم الوحي فيهم، فيتنزل العذر من فوق سبع سماوات انتصاراً من الله لعباده، وتبرئة لساحتهم البيضاء من تُهم أهل الشرك، الذين ارتكبوا الفظائع والشنائع بحق الله أولاً، ثم بحق رسوله ﷺ وصحابته الكرام. عاد الصحابة نصراً وبراءةً.. عادوا ليجدوا في المدينة خبراً.. ليجدوا في وجه رسول الله ﷺ فرحاً، وفي وجوه يهود كدراً وظلمةً. لقد فقدت يهود شيئاً عظيماً، وانقطع آخر الحبال بينهما.

اليهودُ حداد.. اليهود سواد، بعد أن طرق ذلك الخبر أبواب حصونهم المنيعة وآذانهم المسدودة.

فما هذا الخبر؟

هذا الخبر هدية قادمة من السماء.. كان في الماضي شوقاً، وكان أمنية تتردد في صدره ﷺ مذ كان في مكة.. مذ كان يخر ساجداً لله في بيته المحرم.. متجهاً بقلبه نحو الله.. مستقبلاً الشام.. حيث المسجد الأقصى، لكنه كان يقوم بحركة تعبر عن ذلك الحلم الذي لا يستطيع الإفضاء به. كان ﷺ يجعل الكعبة أمام وجهه، بحيث تكون بينه وبين المسجد الأقصى. لكن ماذا عنه الآن؟

إنه ما زال ينفذ أمر ربه، فيستقبل المسجد الأقصى، أما الكعبة.. أما حبيبته الحزينة التي نشأ بالقرب منها، وأحبها ووضع حجرها، فالجاهلية بينهما.. حبيبته بعيدة.. لا يستطيع رؤيتها، ولا الحديث إليها، ولا تحسس ثيابها، ولا حتى استقبالها.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٢٨).

إنها هناك أسيرة.. وهو هاهنا مشتاق.. يتقلب وجهه في السماء، ويطوف طرفه في أرجائها (كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ﴾)[1].

إذاً فالقبلة تحولت من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة المكرمة، لكن متى كان ذلك..؟ وما علاقة اليهود بالقبلة واتجاه المسلمين في صلاتهم؟ وماذا حدث عند سماع الخبر؟

أما متى؟ فخبر ذلك عند طفل عذب اسمه (البراء بن عازب) حيث يقول: (إن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها: صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه ﷺ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة.

فداروا كما هم قبل البيت)[2] أي اتجهوا نحو الكعبة، منفذين.. ممتثلين دون تردد، فالأمر وحي.

لكن إذا كان هناك تساؤل فهل هو اعتراض أو احتجاج كاحتجاج يهود؟

المؤمنون أرقى من ذلك، إن لهم قلوباً رقيقة ومشاعر طيبة، وأدباً جماً. كان تساؤلهم رحمة وشفقة بإخوانٍ لهم ماتوا ولم يصلوا تجاه المسجد الحرام.

البراء ينقل تلك المشاعر فيقول: (فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟)[3].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير، البقرة ١٤٣): حدثني إسماعيل ابن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء. وشيخ ابن إسحاق وشيخ شيخه تابعيان ثقتان ثبتان.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

بل إن البراء رضي الله عنه كان أحد المتسائلين. هو نفسه يقول: (وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا، لم ندر ما نقول فيهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾)[1] وهو أرحم من أن يخذل من قصده، وأناخ رحله وقلبه ببابه. ولعل تلك التساؤلات بدأت بُعيد الصلاة. حيث بدت المدينة مشغولة بهذا الحدث الكبير، فتأخر وصول الخبر إلى أهل قباء ومسجد قباء، فـ (بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليهم الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة. فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة)[2]. كما استدار أصحابهم في المدينة.. كما امتثل إخوانهم هناك خلف رسول الله ﷺ. أما اليهود فقد استدارت قلوبهم ودروبهم عن الله، وعن رسوله ﷺ، وعن قبلته الجديدة، وتطايرت من حصونهم وألسنتهم ألفاظ الاستهجان والاحتجاج.

ها هم يجوبون شوارع المدينة، في سفاهة وسماجة يقولون: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾[3].

لله المشرق والمغرب ولا شيء لليهود، والأمر وحي، واليهود حاربوا الوحي، وقتلوا حملة الوحي من الأنبياء، فكيف لا يحاربون وحياً نزل على غيرهم؟ ونبياً ليس من بينهم؟ واكتملت الآيات، فتلاها رسول الله ﷺ وتلاها أصحابه، ومن بعدهم سيتلونها.. سيتلونها هكذا: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ[4] مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٣) ومسلم من حديث ابن عمر (المساجد ١٣).

(٣) سنده صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٤) أي اليهود.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ (١) ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ (٢) لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾(٣).. يهتدون إلى ما أعرضت عنه اليهود، وضل عنه النصارى. كانت تلك الأحداث بعد منتصف شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، وبعد عودة سَرِيَّة عبد الله بن جحش، حدثنا بذلك سعد بن أبي وقاص.. ربما بعد أن وجد بعيره.

يقول رضي الله عنه: (صلى رسول الله ﷺ ستة عشر شهراً، ثم حول بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين)(٤).

إذاً فالنخل الذي كان في قبلة المسجد أصبح في خلفية المسجد، وبما أن المسجد كان (مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل) فبالتأكيد تكون خلفيته كلها

---

(١) أي باتجاه المسجد الحرام.

(٢) أي اليهود.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١٤٢-١٥٠.

(٤) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٧٣: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا ابن فضيل، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: سمعت سعد. سعيد إمام التابعين وتلميذه تابعي ثقة التهذيب ١١-٢٢١ ومحمد بن فضيل بن غزوان ثقة ثبت ٥٠٢ وسماع تلميذه للسيرة صحيح، وأبو العباس الأصم ثقة ثبت.

مسقوفةً، وبناء جدار في قبلته السابقة أو أحد زواياها، قد يفي بحاجةٍ ماسةٍ.. فهناك أمر يحطم القلب، وتدمع له العين.. هناك حاجة ملحة تطل من منافذ المدينة كل يوم، حيث يتهادى إلى المدينة مهاجر أو مهاجرون. بعضهم ضاق بقومه، و البعض ضاق به قومه وضيقوا عليه، وسلبوا كل شيء لديه، أو دفع كل شيء ثمناً لهروب جميل أو هجرة أجمل. دون مال يأتون.. البعض حفاة، وبعضهم أشباه عراة، وأحضان المدينة والأنصار مفتوحة لهم، وهذه الدولة الصغيرة تستقبلهم وتحميهم، لكن بيوت الأنصار قد امتلأت، والهاربون والمطاردون قد كثروا.

نظر ﷺ إليهم.. تأملهم.. تأمل أبيات الأنصار الممتلئة، وتأمل فقره وفقرهم.. نظر ﷺ إلى مسجده، فجعله دار من ليس له دار، ومأوى من ليس له مأوى، فبنى ذلك الجدار في آخر المسجد[1]، فأصبحت حجرة (صفة) متواضعة.

تدافع القادمون إليها، وعاش في تلك الصفة رجال يمسي الفقر معهم حيث أمسوا.. يبيت معهم، ويصبح كظلهم، يأكل ولا يأكلون، ويشرب ولا يشربون.. عاشوا فيها أياماً ليست كالأيام، وميزهم الفقر بلقب كالفقر هو:

أهل الصفة

رجال فضلوا جوار رسول الله ﷺ رغم العوز على أن يعيشوا عيشةً أيسر بجوار طاغية أو صنم.. يصفهم أحد الصحابة فيقول: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال)[2].

ويقول أحد الذين شاهدوهم: (كان أصحاب الصفة الفقراء)[3] لا يملكون شيئاً.. غرباء لا يعرفون أحداً. هذا هو أحد الفقراء.. أحد الذين عاشوا تلك المعاناة، ودلفوا إلى تلك الصفة الجميلة.. غريب اسمه (طلحة بن عمرو) رضي الله عنه يقول: (كان

---

(١) لا أعرف تحديداً صحيحاً لموقع الصفة وإلا لذكرته وذكرت إسناده.

(٢) متفق عليه.. انظر البخاري (٦٤٥٢) وهو حديث طويل وما ذكرته جزء منه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٠).

الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة. وكنت فيمن نزل الصفة)[1].

لكن ماذا عن شعور رسول الله ﷺ نحو هؤلاء الضعفاء بعد أن بنى لهم تلك الصفة؟ هل تخلى عنهم؟

يواصل طلحة حديثه فيقول: (وكنت فيمن نزل الصفة، فوافقت رجلاً، وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين)[2] لأن رسول الله ﷺ لا يجد لهم أكثر من مد للاثنين معاً.. نصف مد يملأ الكف الواحدة.. هو طعام الرجل الواحد من أهل الصفة.. من الليل إلى الليل.. ليومه وليلته، وقد يأكل الرجل منهم، وقد يأكلون جميعاً بينما رسول الله ﷺ لا يجد ما يأكله، وقد لا يجدون ولا يجد رسول الله ﷺ ما يأكله.

يقول أحد الصحابة: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال. إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها)[3].

إذاً فنصف المد لم يكن متوفراً يومياً، بل ربما مر يوم أو يومان والانتظار يحرق أهل الصفة.. ينظر بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى باب الصفة.. إلى باب المسجد.. إلى باب رسول الله ﷺ يبحثون عن لقمة.. عن نصف لقمة.. عن أي شيء يسد جوعهم، فلا يجدون سوى الجوع طعاماً وشراباً، ويخرج رسول الله ﷺ من بيته، فتتعلق أعينهم به، ويحدقون بيديه فيجدونها خالية كبطونهم. فيدركون أنه ما من طعام.

يقول أحدهم: (الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع)[4] مثل هذا الجائع.. كيف سيصلي وقد حان وقت الصلاة؟!

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٨٧ وأبو نعيم ١-٣٣٩ واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو. داود ثقة متقن وشيخه تابعي ثقة قيل اسمه محجن أو عطاء التقريب ٢٠٠ و٦٣٢وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (٢٨٧/٣) وهو الحديث السابق.

(٣) متفق عليه قال أبو نعيم (٣٣٩/١).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٦٤٥٢).

ها هو ﷺ يدخل المسجد فتقام الصلاة، ويقوم أهل الصفة خلف رسول الله ﷺ للصلاة، وبعضهم يترنح من الهزال والجوع، فيصطفون بين إخوانهم المصلين، ويكبر ﷺ، فيكبرون. وفي لحظات الخشوع الهادئة مع الله.. يسمع المصلون دوياً وارتطاماً بين الصفوف، ويسمع رسول الله ﷺ خلفه حركةً وأنيناً، وتخفق القلوب القريبة من الحدث، ويتألم الجميع بعد انقضاء الصلاة، وينهض عليه السلام بنفسه، فمالذي حدث؟

هذا هو فضالة بن عبيد الأنصاري.. أحد الصحابة.. كان يصلي خلف رسول الله ﷺ.. سألناه:

ماذا حدث يا فضالة

فيجيب فضالة وهو عالم من الشعور والألم فيقول: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم لما بهم من الخصاصية[1] وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين. فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول: لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة[2].

قال فضالة: فأنا مع رسول الله ﷺ يومئذٍ)[3] حيث كان يواسيهم، ويدفع عنهم ما يؤلمهم بشيء يهون معه الجوع، وتحلو معه المعاناة.. يعزيهم بشيء يحول الموت وما بعده إلى أمنية وحلم لا حدود له. ومع هذا العزاء وهذه المواساة كان ﷺ يتألم لتألمهم، ويتألم مثل ألمهم.

تقول حبيبته عائشة رضي الله عنها: (كان ﷺ إذا دخل قال: هل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا. قال: إني صائم)[4].

---

(١) الجوع.

(٢) الفقر والحاجة.

(٣) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية (١٧/٢) من طريق حيوة وابن وهب عن ابن هانئ أن أبا علي الجنبي حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد. أبو هانئ: حميد بن هانئ الخولاني ثقة التهذيب ٣-٥١) وشيخه عمرو بن مالك الهمداني تابعي ثقة أيضاً التهذيب ٨-٩٥.

(٤) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٨٦٠.

لقد تحول الجوع إلى عبادة، وتحول الأكل عبادة..

قال ﷺ مبشراً إخوانه الموسرين: (الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر)[1].

ويقول ﷺ مندهشاً ومبشراً: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[2] (عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له)[3].

يقول ﷺ ذلك، وهو يتمنى لو يدفع عنهم هذا الفقر وهذا الهزال، لكنه لا يجد، فقد كانت تمر به أوقات لا يملك فيها سوى المواساة.. يستمع إلى الشكوى تلو الشكوى، في أجواء من الحرية والفاقة. ها هو (طلحة بن عمرو) أحد أهل الصفة.. يروي لنا حواراً جرى بعد إحدى الصلوات بين رسول الله ﷺ وبين أحد الفقراء، فيقول: (كان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدٍ من تمر بين رجلين، فسلم ﷺ ذات يوم من الصلاة، فناداه رجلٌ منا فقال: يا رسول الله، قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف.

فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي هو وأبو بكر الصديق عليه السلام من قومهما، فقال: مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن تدركون زماناً - أو من أدركهم منكم - تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى[4] عليكم ويراح[5] بالجفان)[6].

---

(١) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٧٣١.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٩٥ .

(٣) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢-٨٣٨.

(٤) يقدم لكم في الصباح.

(٥) يقدم لكم في المساء.

(٦) سنده صحيح. رواه أبو نعيم (١/٣٧٤) من طريقين: عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب ابن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو ورواه أحمد من الطريق نفسه وقد مر معنا.

فرح أهل الصفة بهذا الوعد الصادق، وتأثروا لما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق من أذى ومعاناة، حيث يمر معظم الشهر ليس عندهما ما يأكلانه سوى ثمر الأراك، فما تعرض له أهل الصفة شديد، ولكن ما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه كان أقسى وأشد.

ينصرف أهل الصفة إلى صفتهم، وقد طواهم الجوع والرضى والاحتساب، وانتظار الفرج. ولم يكن ﷺ يواسيهم بالماضي أو بالمستقبل فقط، بل كان إذا اشتدت حاجتهم يتحرك، ويحرك المدينة كلها من حولهم.

يقول أحد أبناء أبي بكر الصديق: (إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس »، وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة)[1].

مأساة هم أهل الصفة وارتحال وقصص باكية.. تنصت لها الأجيال بإجلال، فهذا أحدهم: (قرة بن إياس) يقص لابنه ما جرى لهم مع رسول الله ﷺ، وكان اسم ابنه معاوية. معاوية ينصت لأبيه وهو يقول: (لقد عمرنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان. ثم هل تدري ما الأسودان؟ قال معاوية: لا. قال: التمر والماء)[2] هذا هو الطعام وهذا هو الشراب فما هي:

ملابسكم يا أهل الصفة

لو شاهدتهم لبكيت، ولاستحيوا منك وأنت تنظر إليهم، وتنظر إلى تلك الأشياء التي ألقوها على أجسادهم.. يسمونها ملابس! وما هي بملابس. إنها أسمال مهلهلة بالية.. باكية.

---

(١) متفق عليه قاله أبو نعيم ورواه في الحلية (٣٣٨/١).

(٢) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية ٢-٢٢-٣٣ من طريق روح بن عبادة. ورواه جعفر بن سليمان، قالا: حدثنا بسطام بن مسلم عن معاوية بن مرة قال: قال أبي. وروح وجعفر ثقتان، وشيخهما ثقة من رجال التقريب، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٥٣٨.

لو استمعت إليهم وهم يستغيثون: (يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف)[1] الكتانية الغليظة الرديئة.

من يصدق أنه (كان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحدٍ منهم رداء)[2]. والرداء كالعباءة.

لقد كان ذلك.. رآهم رسول الله ﷺ، ورآهم أحد الصحابة، فنقل للجميع ما رآه وقال: (رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته)[3] فهو لا يملك غيره، ولا يملك ثمن سراويل أو ملابس داخلية تستر عورته.

وفي تفصيل آخر يقول: (رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[4].

إن من يطلع على تلك المآسي التي تلوَّى منها أولئك الفقراء العظماء، ليظن أنهم مجرد فقراء مساكين.. جاءوا يبحثون عن الطعام والشراب والمأوى، وهم - والله - ما قدموا من أجل لقمة أو رغيف، ولم يتسللوا من أجل صُفة متواضعة.. إذا ضربها المطر ساعة أمطرت عليهم ساعات، وابتلت ثيابهم وجنوبهم وظهورهم، والأرض التي يتوسدونها. إن هؤلاء العظماء قد فروا من العيش الرغيد، وتركوا الأهل والأموال والعشيرة، وربما الخدم.. تركوا الدنيا بكل زخارفها، لأنها كانت تركن إلى صنم.. لأنها كانت تلوذ بغير الله. قرأوا القرآن فاكتشفوا التوحيد، فأعاد خلق تصوراتهم وأفكارهم ورؤيتهم للكون والحياة من جديد، فاتجهوا بكليتهم.. بعواطفهم ومهجهم وعقولهم إلى

---

(١) مر معنا وهو صحيح.

(٢) سنده قوي. رواه أبو نعيم. الحلية ١-٣٣٩ حدثنا محمد بن محمد بن إسحاق حدثنا زكريا الساجي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عمي عبد الله بن وهب، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة. وشيخ أبي نعيم هو أبو أحمد الحاكم حافظ عصره (طبقات الحفاظ ٣٣٨) وشيخه ابن يحيى ثقة فقيه من رجال التقريب وأحمد صدوق من رجال مسلم، وعمه ثقة معروف، وابن غزوان ثقة التهذيب ٨-٢٩٧ وأبو حازم الأشجعي تابعي ثقة التقريب ٢٤٦.

(٣) رواه أبو نعيم (٣٤١/١) من طريق الإمام أحمد بسند قوي وانظر ما بعده فهو هو...

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٢).

الله سبحانه وتعالى، وتسللوا والناس نيام إلى صفةٍ لا تقي من البرد، ولا من الجوع. لكنها بالتأكيد صفة تستدفئ بمسجد رسول الله ﷺ، وبقرب رسول الله ﷺ.. يعمرها القرآن، ويزينها الإيمان.

تمر بها عائشة رضي الله عنها ذات ليلة وهي في طريقها إلى بيتها، فتقف خلف جدارها مأسورةً مأخوذةً. فتبطئ الخطا، وتبطئ على زوجها رسول الله ﷺ. ثم تعود، وعندما تصل يسألها رسول الله ﷺ: (أين كنت.؟ قلت: يا رسول الله سمعت قراءة رجل في المسجد، ما سمعت مثله قط.

فقام رسول الله ﷺ وتبعته. فقال لي: ما تدرين من هذا؟

قلت: لا. قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة.

ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا)[1].

سالم هذا عبد فقير صغير السن.. لكن النبي ﷺ يفخر به.. يبتهج به، ويشكر الله سبحانه أن وهب هذه الأمة مثله.

إن أمة تفخر بالموالي والعبيد كما تفخر بالأشراف، لأمة عظيمة. وإن ديناً يتساوى فيه البشر، ليستحق الخلافة في الأرض.. كل الأرض، ويستحق أن تنقطع الأعناق في الصحاري والقفار بحثاً عنه.

في يوم من الأيام يقرر أحد المؤمنين أن يترك أهله وديارة.. يقرر أن يلتحق بتلك الصفة المتواضعة خوفاً على دينه. أيام تمر وليالي تمضي، وهو يسير مع غلامه في طريق الهجرة، وذات يوم وعندما خيَّم الليل.. يقرر ذلك الغلام الفرار والهرب من سيده، فيفعل، ويتركه وحيداً مع الليل الخوف، فيواصل سيده المسير دون تردد، وتلك الليلة المشحونة بالهموم والوحدة والإرهاق تملأ صدره.. فيتنهد شعراً ويقول:

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن المبارك وأبو نعيم في الحلية (٣٧١/١) من طريق: حنظلة بن أبي سفيان عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة رضي الله عنها ح. حنظلة شيخ ابن المبارك وشيخ الوليد عند أبي نعيم ثقة حجة (التهذيب ٦٠/٣) والتقريب (٢٠٦/١) وشيخه عبد الرحمن بن سابط تابعي ثقة (التقريب (٤٨٠/١) والتهذيب (١٨٠/٦).

يـا ليلـة مـن طولهـا وعنائهـا علـى أنهـا مـن دارة الكفـر نجَّت

مسـافر بلا رفيق، وليل طويل مخيف، وطريق غير آمنة. كل ذلك يهون، لأنه يؤدي إلى المدينة.. إلى الحبيب محمد عليه السلام.

سكن ذلك المسافر في الصفة، وتخرج منها ليكون أعظم علماء الإسلام في الحديث.. تخـرج هو وغيره من تلك الصفة علماء، لأنها لم تكن ملجأ فقط. لقد تحولت إلى كتاب مفتوح منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ﷺ على أهل الصفة فنثر الكنوز بين أيديهم.

عقبة بن عامر كان أحد الحاضرين. سألناه ماذا قال لكم رسول الله ﷺ يا عقبة؟ فقال: (خرج رسـول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطيعة رحم؟».

فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال ﷺ: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، و ثلاث خير له من ثلاث، وأربع خيـر له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[1] الإبل التي هي أنفس ما يملكه العربي.. حولها الإسلام إلى أشياء رخيصة أمام أحرف العلم.

وحدث رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم عن العلم والمال، فأمرهم أن يحفظوا هذا الحديث فقال: (وأحدثكم حديثاً فاحفظوه إنما الدنيا لأربعة نفرٍ:

«عبـدٍ رزقه الله مالاً وعلمـاً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبدٍ رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية» يقول: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبـدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، و لا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقاً. فهذا بأخبث المنازل.

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، صلاة المسافرين.

.. وعبـــدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهـــو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان. فهو بنيته، فوزرهما سواء»)[1].

حتى النوايا والأمنيات حولها الإســـلام إلى كنوز، لتتحول حياة المســـلم إلى أحلام وآفـــاق تهون نحوها المعاناة. لذا فقـــد انطلق أهل الصفة نحو العلـــم، وانطلق أغنياء الصحابـــة نحو العلم، ونحو أهل الصفة وغيرهم من الفقراء، وانطلق الأنصار، وتفجر كرمهم من جديد، وفاح عبيرهم، وتوهجت شمسهم نحو أهل الصفة والفقراء.

هاهم يقومون بأعمال أشـــبه بالمعجزات.. أشـــبه بالخيال، لأنهم الأنصار، ولأنهم ينجزونها كلها في اليوم والليلة، وفي كل يوم وليلة.

يحدثـــا عنهم أنس بن مالك فيقول: إنهم رجال (مـــن الأنصار يقال لهم «القراء» فيهم خالي «حرام» يقرأون القرآن ويتدارســـون بالليل، يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المســـجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشـــترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء)[2].

ألم أقل إنه عمل أشـــبه بالمعجزات. قبل شـــروق الشـــمس ينهضون.. يصلون، ثم يستسقون لأهل المدينة.. يضعون لهم الماء في المسجد مسبلاً للعطشان، وابن السبيل، ولمن يمر أو يقيم في المســـجد. ثم يتوجهون كالحياة إلى خارج المدينة.. تهوي فؤوسهم وسواعدهم.. يحتطبون، ويكدحون، ثم يذهبون به إلى بيوتهم؟

لا، بل إلى السوق حيث يمارسون البيع والشراء.. يبيعون الحطب، ويشترون بثمنه طعاماً لأهل الصفة وللفقراء الآخرين.

هذا هو نهارهم سقاية.. وكدح، وبيع وشراء، ثم صدقة طيبة يدخلون بها البسمة إلى قلوب إخوانهم المساكين. فإذا جن الليل عليهم توجهوا إلى مدرسة الإسلام، ومنبع ثقافته.. إلى المسجد.. يقرأون القرآن، ويتدارسون العلم ويصلون.

لا تدري أهم علماء، أم عمال، أم عباد، أم تجار؟

---

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع وصحيحي الترمذي وابن ماجه.
(٢) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، الإمارة، ٣ - ١٥١١.

إنهم الحياة إذا رسمها القرآن، ونفثت فيها السنة.. إنهم العطاء بكل أبعاده وأعماقه وآفاقه.. إنهم الأنصار، ولا تعرف الدنيا للأنصار مثيلاً. أما رسول الله ﷺ فقد انطلق من جديد.. يكثف الشعور بالمساكين والفقراء. انطلق رسول الله ﷺ نحو الجميع بوحي جميلٍ وجديد.. وحي يجعل من الإحساس بالفقر والفقراء عبادةً جديدةً.

الإسلام من جديد يقدم للفقراء الهدايا والهبات والمشاعر، فبعد أن مر شهر رجب من السنة الثانية، وحل بعده شهر شعبان أصبح المؤمنون ينتظرون هذا الجديد الجميل، الذي سيطل مع إطلالة هلال شهر رمضان القادم. فرمضان هذه السنة سيختلف عن أي رمضان مضى. لقد أمر الله سبحانه بـ:

صيام شهر رمضان

وأنزل على نبيه ﷺ آيات بينات يقول فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾[1].

إذاً فالصيام كان مفروضاً على الأنبياء السابقين.. كان مفروضاً على اليهود، وكان مفروضاً على النصارى، لكنهم حرفوا فيه كما حرفوا الكتب التي جاء بها أنبياؤهم، وزادوا ونقصوا كما فعلوا في التوراة والإنجيل. فصار لكل طائفة صيام، وتشكل الصيام وتنوع حسب أمزجة الأحبار والرهبان.

أما الآن فقد جاء محمد ﷺ، وجاء رمضان، وكتب الصيام من جديد. فما هذا الصيام الذي ضيعه أهل الكتاب وأعاده الله طرياً بمحمد ﷺ؟

ما هو الصيام

بدأ الصيام بـ: ترك الطعام والشراب والجماع من بعد صلاة العشاء إلى غروب الشمس، فكان المسلم يأكل ويشرب من بعد الغروب إلى أن يصلي العشاء فقط، فإذا

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.

صلى العشـــاء حرم عليه الطعام والشـــراب. كما أن من نام في الليل، ثم اســـتيقظ في الليلة نفسها فلا يحل له أن يأكل أو يشرب شيئاً حتى غروب شمس الغد.

هذا إن كان المســـلم ســـليم الجسم، ولا يشكو من أي مرض، وكان مقيماً في بلدته غير مســـافر. فإن كان مريضاً أو مســـافراً فيجوز له أن يفطر، لكن يجب عليه صيام الأيـــام التـــي أفطرها فيما بعد. وقبل ذلك كله كان بإمكان أي مســـلم ســـليماً كان أو مريضاً.. مقيماً كان أو مســـافراً. كان بإمكان أي مســـلم أن يفطر، ولا يقضي أي يوم أفطره، لكن بشرط.

هذا الشـــرط هو أن يقوم المفطر بتقديم وجبة تشبع مســـكيناً واحداً عن كل يوم أفطره. لكن هذه الأحكام لم تدم. لقد تغيرت ونسخت، وجاءت بعدها:

أحكام جديدة في الصيام

وكان لهذه الأحكام الجديدة أســـباب وقصص.. بعضها طريف، وبعضها يتلوى من الجوع. لكن الصيام لم يتغير. ما زال: ترك الطعام والشراب و... فما هذه القصص؟

البراء بن عازب رضي الله عنه يقص علينا إحداها، ويحدثنا عن أهل بيت صاموا وصـــام معهم بيتهم، الذي كان خالياً كبطون أهله. ذلك البيت الذي لم يكن فيه ما يبل الريق، أو يسد الجوع. إنه باختصار صفة أخرى..

يقول البراء: (إن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشى لم يحل له أن يأكل شيئاً، ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس، حتى نزلت: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ونزلـــت في أبي قيس بن عمرو، أتى أهله وهـــو صائم بعد المغرب، فقال: هل من شيء؟ فقالت امرأته: ما عندنا شيء، ولكن أخرج ألتمس لك عشاء.

فخرجت ووضع رأسه فنام، فرجعت إليه فوجدته نائماً، وأيقظته فلم يطعم شيئاً، وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار، فغشـــي عليه، وذلك قبل أن تنزل هذه الآية فأنزل اللـــه فيـــه)[1]. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

(١) صحيح النسائي ٢-٤٦٧ للإمام الألباني وهو في للبخاري (١٩١٥) بلفظ آخر.

فقــط ولم ينزل الله كلمــة: (من الفجر) بعد قوله تعالــى: ﴿ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾. في بداية الأمر مما جعل بعض الصحابة يخطئ في معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود فكانــت هذه القصة الطريفة التي رواها صحابي اســمه ســهل بن ســعد رضي الله عنــه فقال: (أنزلــت: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾. ولــم ينزل: (من الفجر)، وكان رجــال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأســود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: (من الفجر) فعلموا أنما يعني الليل والنهار)[1].

أما القصة الأخرى فهي تتحدث عن قِصر وقت الفطر، وأنه مرهون بأداء صلاة العشاء.

يقــول أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو يتحدث عن قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾: فكان الناس على عهد النبي ﷺ إذا صلوا العتمة[2] حرم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه فجامع امرأته وقد صلى العشاء ولم يفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك يســراً لمن بقي ورخصة ومنفعة، فقال سبحانه: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾. وكان هذا مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر)[3] فجعل الفطر مباحاً حتى طلوع الفجر، فيصوم المسلم حتى يغيب قرص الشمس حيث قال ﷺ لأصحابــه: «إذا أقبــل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشــمس فقد أفطر الصائم»[4].

أما عن الصوم الاختياري في أول الأمر، فقد تغير أيضاً وألغي كما قال االصحابي ســلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كان مــن أراد منا أن يفطر ويفتــدي فعل، حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها)[5].

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري (٤٥١١).

(٢) العشاء.

(٣) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٤٤٠).

(٤) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١٢٧).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (صحيح أبي داود ٢/٤٤١).

فما هي الآية التي بعدها والتي نسختها وغيرت كل الأحكام السابقة التي مرت معنا؟ هذه الآية هي في قوله سبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[1]..

هذا هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، والذي قال فيه ﷺ: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)[2].

شهر الكتب المنزلة التي ضاع بعضها، وحرف بعضها، ولم يبق منها سوى القرآن شاهداً لها.. شاهداً على أممها، التي ضيعتها وحرفتها، ورغم الصوم.. رغم الجوع والعطش، لم يتحول هذا الشهر إلى شهرٍ للخمول، ولم تتحول المدينة فيه إلى جدران يغط تحتها الصائمون، ويستندون كالكسل إليها وأعينهم إلى الشمس ينتظرون غروبها. فالمدينة تعج بالحركة نهاراً، وبالقيام والتهجد ليلاً. بيوت المؤمنين في ليالي رمضان تشتعل بنور القرآن.. بالسجود والركوع والدموع.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٨٥-١٨٧.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (٣١٣/١).

في تلك الليالي كانت إحدى الحجرات وجعاً وأنيناً.. أنين قادم من الحبشة.. قادم من المعاناة، وما كادت تستقر به الأقدام بين حرات المدينة حتى كان موعده المحتوم مع المرض والآلام.

فلذة كبد رسول الله ﷺ وقرة عينه هي تلك الأنين.. رقية بنت محمد ﷺ أقعدها المرض، وأسهر زوجها عثمان بن عفان، وآله.

رقية مريضة

هاجرت من مكة.. خاضت البحر فألقاها في الحبشة، وخاضته مرةً ثانية، فتهادى بها حتى وضعها بين يدي والدها العطوف الحنون. وما كادت تتنفس هواء الحرية والأمن، حتى أطاح بها المرض، فهي طريحة الفراش والوجع في ذلك الشهر الكريم.

رسول الله ﷺ يزورها ويطمئن عليها، ويوصي زوجها الحزين بملازمتها. رقية بضعة من رسول الله ﷺ، والأمة أمانة، والرسالة أمانة. هموم تتداعى إلى قلبه ﷺ.. تتكتل أمام عينيه، ولا بد لها من حلول. رقية مريضة، وأهل الصفة جائعون، والمهاجرون قد سُلبوا أموالهم وبيوتهم لينجوا بأنفسهم وإيمانهم من سياط الشرك وأهله، وهناك فرصة تلوح في الأفق لاسترجاع شيء مما سلبه الطواغيت منهم.

ترى هل يبقى ﷺ قرب ابنته الحبيبة؟ أم سيركب إلى تلك الفرصة؟ هكذا كانت ليالي رمضان الأولى في المدينة، لكن كيف كانت ليالي رمضان في مكة. سندع رسول الله ﷺ حتى يقرر ولنتسلل إلى مكة لنرى:

كيف كان ليل رمضان في مكة

إذا كانت أنسام الليل تحمل أنين رقية ودموعها، فإن أنسام مكة تحترق بزفرات نساء ورجال مستضعفين.. يمنعهم الضعف من البوح بتوحيدهم ودينهم، وحبهم لنبيهم ﷺ. أسرارهم كالجمر في صدورهم.. يرعبهم ليل مكة، ويؤرقهم العيش بين الأصنام والشرك والمشركين الذي كان ليلهم خليطاً من الخمر والغطيط.

أنسام مكة تحترق بزفرات أخت رقية المريضة.. أختها الكبرى زينب، التي تتحرق شـــوقاً إلى أبيها.. إلى أخواتها الحبيبات.. رقية وأم كلثوم وفاطمة. إنها لا تعلم شـــيئاً عنهـــم، ولا تدري هل ســـتلتقي بهم يومـــاً من الأيام أم لا؟ ونبي الله ﷺ يشـــتاق إليها ويحبها ويثني عليها، ويتمنى قربها وقدومها.

إنها أكبر بناته، وقد عانت وعانت الكثير في ســـبيل الله. إنها ابنة نبي، لكنها زوجة رجل لا يزال على شـــركه.. رجل صادق ووفي اســـمه: أبو العاص بن الربيع، وهو شغوف بها ويحبها، لكن شركه يخنق ليلها وأنفاسها. فتاة مستضعفة مبتلاة، وهموم تزدحم في صدر والدها عليها وعلى أختها، وعلى كل مســـتضعف ومســـتضعفة. هذا هو ليل زينب الحزينة. وهذا هو ليل مكة المخيف الذي كان يحمل الفزع إلى إحدى البيوت.. إلى إحدى النساء التي كانت غارقة في نومها، حتى انتشلها الفزع، وانتشلها فارس الأحلام.

فارس الأحلام أتاها، لا ليحملها بين ذراعيه، بل ليدك بيوت قومها. فارس الأحلام هذا مخيف ومرعب.. يقفز في الهواء.. فوق الكعبة والجبال.. يحرك الصخور.. يصيح بأهلها.. صوته مخيف.. يتوعد بالموت والشظايا.

تلك المرأة المفزوعة لم تكن بعيدة من زينب بنت نبي الله ﷺ.. بل من أقرب الناس إليها، وتعيش بالقرب منها. امرأة من صلب قريش.. إنها ابنة عبد المطلب، وعمة رسول الله ﷺ واســـمها: (عاتكة). فهل يا ترى ستكون رؤياها كرؤيا والدها، الذي غاص في الأعمـــاق وحفـــر زمزم؟ أم أن فارس القمـــم الذي رأته في منامها ســـيدمدم ما تبقى لقريشٍ من آبار تنضح بالشرك؟

تلك الرؤيا حولت مكة إلى غبار وضجيج، ونزاع وتشاتم. سنخيم على بيت عاتكة لننظر ما يحدث في منامها:

رؤيا

عاتكة بنت عبد المطلب

(كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمة رســـول الله ﷺ ســـاكنة مع أخيها العباس بن عبد المطلب، فرأت رؤيا قبيل بدر ففزعت، فأرســـلت إلى أخيها عباس من ليلتها حين

فزعت، واستيقظت من نومها وقالت: رأيت رؤيا وقد خشيت منها على قومك الهلكة؟ قال: وما رأيت؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها، فإنهم إن سمعوها آذونا، فأسمعونا ما لا نحب.

فعاهدها عباس، فقالت: رأيت راكباً أقبل على راحلته من أعلى مكة يصيح بأعلى صوته: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث.

ثم دخل المسجد على راحلته، فصرخ في المسجد ثلاث صرخات، ومال إليه من الرجال والنساء والصبيان، وفزع الناس له أشد الفزع، ثم أراه مَثُلَ على ظهر الكعبة على راحلته[1]، فصاح ثلاث صرخات: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث. حتى أسمعَ من بين الأخشبين[2] من أهل مكة.

[ثم إن بعيره مَثُلَ به على رأس أبي قبيس[3] فقال: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث].

ثم عمد لصخرة عظيمة فنزعها من أصلها، ثم أرسلها على أهل مكة، فأقبلت الصخرة لها دوي، حتى إذا كانت عند أصل الجبل أرفضت[4]، فلا أعلم بمكة بيتاً ولا داراً إلا قد دخلها فلقة من تلك الصخرة. فقد خشيت على قومك أن ينزل بهم شر.

ففزع منها عباس وخرج من عندها، فلقي من آخر ليلته الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان خليلاً للعباس- فقص عليه رؤيا عاتكة، وأمره أن لا يذكرها لأحد.

فذكرها الوليد لأبيه، وذكرها عتبة لأخيه شيبة، وارتفع حديثها حتى بلغ أبا جهل ابن هشام، واستفاضت. فلما أصبحوا غدا عباس يطوف بالبيت حين أصبح، فوجد أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وأبا البختري في نفر يتحدثون. فلما نظروا إلى العباس يطوف بالبيت ناداه أبو جهل: يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فآتنا.

---

(١) قفز بعيره الذي يركبه على ظهر الكعبة.

(٢) جبلان يحيطان بمكة. أى سمعه الناس الذين يسكنون بين هذين الجبلين.

(٣) اسم جبل. أى قفز به بعيره على رأس ذلك الجبل.

(٤) تفرقت: أي تطايرت متحولة إلى حجارة صغيرة وشظايا عند أسفل الجبل.

فلمـــا قضـــى طوافه أتى فجلـــس، فقال أبو جهـــل: يا أبا الفضل، مـــا رؤيا رأتها عاتكة؟

قال: ما رأت من شـــيء. قال: بلى. أما رضيتم يا بني هاشـــم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النســـاء، إنا كنا وأنتم كفرسي رهان[1]، فاستبقنا المجد منذ حين، فلما تحـــاذت الركب قلتم: منا نبي[2]. فما بقي إلا تقولوا: منا نبية!! لا أعلم في قريش أهل بيت أكذب رجلاً، ولا أكذب امرأة منكم.

فآذوه يومئذٍ أشـــد الأذى، وقال أبو جهل: زعمـــت عاتكة أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت لقريش كذبكم، وكتبنا ســـجلاً ثم علقنا بالكعبة: أنكم أكذب بيت في العرب رجلاً وامرأة)[3].

يقـــول العباس: [فوالله مـــا كان إليه مني من كبير إلا أني أنكرت ما قالت، فقلت: ما رأت شيئاً ولا سمعت بهذا.

فلما أمســـيت لم تبق امرأة مـــن بني عبد المطلب إلا أتتنـــي فقلن: أصبرتم لهذا الفاســـق[4] الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم تناول النســـاء وأنت تسمع، فلم يكن عندك في ذلك غيرة؟!!

فقلـــت: قد والله صدقتن وما كان عندي في ذلك من غيرة، إلا أني قد أنكرت ما قال، فإن عاد[5] لأكفينه.

فقعدت في اليوم الثالث أتعرضه ليقول شـــيئاً فأشـــاتمه، فوالله إني لمقبل نحوه، وكان رجلاً حديد الوجه، حديد النظر، حديد اللسان، إذ ولى نحو باب المسجد يشتد. فقلت - في نفســـي-: اللهم العنه كلَّ هذا فرقاً[6] أن أشـــاتمه، وإذا هو قد سمع ما لم

---

(١) أي كالمتسابقين إلى هدف.

(٢) يقول هذا الطاغوت: إنكم يا بني هاشم ادعيتم النبوة كذباً عندما تساوينا وإياكم في الشرف والمجد حتى تتغلبوا علينا.

(٣) انظر تخريجه في نهاية القصة.

(٤) المقصود هو أبو جهل.

(٥) المقصود هو أبو جهل.

(٦) خوفاً.

أســمع: صوت ضمضم بن عمرو، وهو واقف على بعيره بالأبطح، قد حول رحله، وشق قميصــه، وجدع بعيره[1] يقول: يا معشــر قريش، اللطيمة، اللطيمــة. أموالكم مع أبي ســفيان، وتجارتكم قد عرض لها محمد وأصحابه، فالغوث، الغوث. فشغله ذلك عني وشغلني عنه، فلم يكن إلا الجهاز حتى خرجنا][2].

لقد ثارت قريش وهاج الكفر كله، فما الذي أصاب القوم حتى صاروا كالمجانين؟

هــل تحققت رؤيا عاتكة وصدقت، وكذب أبو جهل وطــار عقله، فطار عقل أمية وصوابه؟ ما الذي حدث، وماذا فعل رسول الله ﷺ بأبي سفيان وقافلته هذه؟

لقــد كنا فــي المدينة عند رقية حيث كان بيتها ســاكناً إلا من أنينها .. حيث كانت المدينة ساكنة بالإيمان، فما الذي كان يخطط له رسول الله ﷺ والناس نائمون؟

ســنعود إلى المدينة حيث ترقد رقية. ها هي طريحة الفراش والألم، وها هو عثمان بقربها ينظر إلى حبيبته وردة تذبل يوماً بعد يوم.. تذبل ألماً بعد ألم. لقد عادها أبوها ﷺ قبــل أيــام، ورأى ما بها فأوصى عثمان الحزين بالمكوث عندهــا، ثم ودعهما بعد أن ألقى عليها نظرة الوالد المحب الحاني، وودعته بعينين حزينتين.

كأني بعينيها تغرقان بالدموع.. تتعلقان بهذا الوالد الذي لا يستطيع البقاء عندها، ولا يملك لها سوى الدعاء.

اســتودعها الله وتركها، ومرارة الوداع في حلقها وقلبها، ومرارة الوداع في كلماته لعثمان. وعثمان صابر محتسب.. يفوته الخروج مع حبيبه ﷺ فيصبر، وقد تفوته رقية وترتحل عنه. أي ليلٍ سيخيم على عثمان؟

---

(١) أي قطع أنفه تعبيراً عن هول الكارثة التي حلت بقريش.

(٢) هذا الخبر حسن بطرقه... وهو عند الطبراني (٣٤٦/٢٤): ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير. وهذا مرســل وابن لهيعة فيه ضعف، لكن الرواية ثابتة عن عروة عند ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، ويزيد ثقة كما رواها ابن إسحاق بسند متصل: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس، وقد صرح ابن إسحاق باسم شيخه الذي وثقه فقال: حدثنا حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.. ورغــم أن رواة الســند كلهم من بيت العباس بن عبد المطلب إلا أن حســيناً هــذا ضعيف، وروايته تتقوى بمرسل عروة.. انظر البيهقي ٣-٢٩ وهي عند الطبراني من طريق عبد العزيز بن عمران. حدثنا محمد بــن عبد العزيز بن عمر بن عبــد الرحمن بن عوف عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عن عاتكة وعبد العزيز قد توبع عند ابن منده لكن شــيخه ضعيف وبقية الرواة ثقات، والقصة حسنة بهذه الطرق.

رســـول الله ﷺ أكثر صبراً واحتســـاباً.. ابنة في مكة لا يستطيع رؤيتها.. حبيسة الشـــرك. وابنة حبيســـة المرض، وأصحاب معدمون يتزاحمون في صفة مليئة بالجوع، وقريش تســـرح وتمـــرح وتتاجر بأموال أصحابـــه، وأمة تحتاج إلى قائـــد يحملها إلى المستقبل، وإلى تلك الفرصة من التعويض وانتزاع الحقوق المغتصبة.

قدم ﷺ حاجة أمته على حاجته، ومصلحتها على هموم أســـرته، فخرج، لكن إلى أين..؟ هاهو أنس بن مالك يســـير مع رسول الله ﷺ سنعرف منه ما حدث. إنه يتكلم فلننصت إليه:

الخروج وأسبابه

يقول أنس رضي الله عنه: (بعث رســـول الله ﷺ (بسيســـة) عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان. فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ [1])[2].

ذهب الصحابي المدعو «بسيســـة» فـــي مهمة حددها ﷺ، وهي تحســـس أخبار القافلة القرشـــية القادمة من الشام نحو مكة، والتي يقودها أبو سفيان بن حرب، وتم رصد وتحديد طريق ســـيرها ومكانها. أتم بسيسة مهمته كما هو مطلوب منه، ثم عاد إلى رســـول الله ﷺ (فحدثه الحديث، فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة، فمـــن كان ظهـــره حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يســـتأذنونه في ظهورهم في علو المدينة؟ قال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً)[3].

جاء أبو بكر، وجاء عمر، وجاء علي، أما عثمان فاستبقاه رسول الله ﷺ بالمدينة، وأمـــره بالمكوث، وجاء بقية الصحابة مـــن المهاجرين والأنصار، وجاء عمر بن الخطاب بابنه الصغير عبد الله فتأمله ﷺ، فوجده طفلاً، فأعاده مكســـور الخاطر بعد أن كان يحلم بخطوات يسيرها في دروب البطولة والشهادة.

وجاء طفل آخر اسمه البراء بن عازب، فأعاده ﷺ أيضاً، فراح فيما بعد يتحدث إلى من حوله عن تلك الرفقة العظيمة، ويصفها بالإيمان ويتمنى لو ســـار معها فيقول:

---

(١) قال بعد هذه الكلمة: لا أدري ما استثنى بعض نسائه، أي أن بعضهن كانت عنده ﷺ.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(اســتصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكنا -أصحاب محمد- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[1].

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومعه فتى صغير اسمه (عمير) إنه أخوه، وهو شــجاع مثله، لكنه كان خائفاً مضطرباً، بل لقد بكى. فكيف يكون شجاعاً، وكيف يرغب في الشهادة وقد انتابه الخوف والبكاء؟!

تلــك قصة عجيبة رويت عن أخيه ســعد حيث يقول: (رأيــت أخي عمير بن أبي وقــاص قبل أن يعرضنا رســول الله ﷺ بدر يتوارى، فقلــت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رســول الله ﷺ فيســتصغرني، فيردني وأنا أحــب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة.

[فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع.

فبكى عمير فأجازه رسول الله ﷺ] فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره)[2].

كأني بســعد يعقد ســيور سيفه لأخيه ويبتسم، فيبتســم عمير لمن حوله وللجنة. قصة مؤثرة تســيل دموعاً وشوقاً للشهادة، وشــاب ملأت الجنة روحه وجوانحه. إنها حال الشــباب في أي زمان ومكان تحل فيهما قيادة إســلامية صافية ومخلصة. لقد اجتــاز عمير بن أبي وقاص آخر العقبات في حياته، وها هو أمام بوابة مشــرعة على الخلود. عمير من ثمار الرسول ﷺ.. عمير وغيره.

انظروا إلى هذين.. إنهما صديقان يكبران عميراً بقليل.. أســدان اسم أحدهما: (معاذ بن عمرو بن الجموح) واســم الآخر (معــاذ بن عفراء) وعلى أحد الأبواب، وفي

---

(١) حديث صحيح. رواه البيهقي (٣٦/٣) وهو عند البخاري بلفظ آخر... انظر البخاري (٣٩٥٥، ٣٩٥٦، ٣٩٥٧، ٣٩٥٨، ٣٩٥٩).

(٢) ما أريده من هذه القصة هو ما بين المعقوفين أما ما كان خارجهما فسنده ضعيف لأنه من طريق الواقدي كما في الإصابة -ترجمة عمير- وعند ابن ســعد (١٤٩/٣) وما بــين المعقوفين عند الحاكم (٤٧/٣) من طريق يعقوب الزهري أخبرنا إسحاق بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن عامر بن سعد عن أبيه.. وهذا السند صحيح ورجاله ثقات لولا أوهام يعقوب بن محمد الزهري وهو صدوق لكنه لم ينفرد فقد تابعه شــيخ البزار في روايته (كشــف الأســتار ٣٥١/٢) واسمه محمد بن قيس. ولعله توبع أيضاً عند البغوي فقد روى الحديث كما قال الحافظ في الإصابة.

بيت من أبيات المدينة كانت الدموع، وكان الوداع والعناق بين شاب وأمه، ولك أن تتخيل ما تشعر به أم تفارق ابنها.. تودعه وهي لا تدري هل سيعود إليها أم أنها بعثت به إلى الموت، وبعثت بنفسها إلى الحزن والحداد. أم الربيع بنت النضر - عمة أنس بن مالك، وأخت الأسد الهصور: أنس بن النضر- تودع ابنها الذي يرتع في قلبها.. تودع ابنها (الحارث[1] بن سراقة) وداعاً حاراً باكياً، لكنها الجنة فليذهب الحارث إلى الجنة من أي طريق شاء.

فارس آخر.. ربما كان يشتري بعض التمر.. ربما كان قبل قليل بين النخيل يخترف منها، وربما غير ذلك، لكنه كان يضع بعض التمرات في جيبه، ولما سمع النداء هب مسرعاً لنداء الله ورسوله ﷺ.. إنه (عمير بن الحمام)[2].

اجتمع هؤلاء وغيرهم حول نبي الله ﷺ، فكانت المشورة وحرية الرأي قبل الانطلاق.

المشورة قبل الانطلاق

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد، لفعلنا.

فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا)[3].

ولئن كانت المشورة قبل الانطلاق فقد كان هناك:

---

(١) سيأتي الحديث عن هذا الفتى رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.

(٢) سيأتي الحديث عن هذا الصحابي رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٤) وروى مسلم نحوه.. وسند أحمد صحيح متصل رجاله أئمة ثقات هم... عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.

سرية في الانطلاق

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر)[1].

دون ضوضاء.. دون أجراس وضجيج انطلق ﷺ وصحابته، وسمح ﷺ بالانطلاق معه لمن ليس معه راحلة، وأمر ﷺ بالاشتراك والتناوب بين الاثنين والثلاثة على الراحلة الواحدة. فامتثل الجميع وتحركوا نحو تلك القافلة مسرعين.. يطوون الأرض طياً، وفي طريقهم يرون راكباً يسابق الريح إليهم، فيلحق بهم.

ما الذي حدث؟ هل هو عثمان بن عفان جاء ليخبر رسول الله ﷺ أن ابنته زينب اشتد بها المرض؟ أم هو رجل لم يعلم إلا متأخراً فلحق بهم بعد أن علم بالأمر؟

ليس هذا ولا ذاك.. إنه رجل مشرك، لكن فيه من الشهامة والرجولة الشيء الكثير.. إنه يمتطي راحلته وشهامته، ويتجه بهما نحو رسول الله ﷺ يكلمه، ثم يرد عليه ويسير ﷺ، فيلحق به ثم يكلمه مرة أخرى، فيرده ثم يسير ﷺ ويتركه. فمن هذا الرجل، ولماذا تركه ﷺ في مكان يقال له (حرة الوبرة)؟

تقول عائشة رضي الله عنها: (خرج رسول الله ﷺ قِبل بدر، فلما كان بحرة «الوبرة» أدركه رجل يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: «جئت لأتبعك وأصيب معك».

قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا.

قال ﷺ: «فارجع فلن أستعين بمشرك».

ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك.

ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم.

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد (١٥٠/٦) والنسائي وغيرهما (سيرة ابن كثير ٣٨٩/٢)... سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن بشر والصواب: سعيد بن بشير عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة وقد خالفهما هشام فرواه عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة ومع احتمال التعدد إلا أن سعيداً رغم كونه مدلساً فإنه أثبت الناس في قتادة وشيوخه ثقات. التقريب (٢٥٩/١) و (٢٨٩/١).

فقال له رسـول الله ﷺ: فانطلق)[1] فانطلق الرجل مع النبي ﷺ وأصحابه مسـلماً، بعد أن دفن الشـرك والأصنام بالبيداء، ورفرف مع شـجاعته ونجدته في أجواء التوحيد الطاهرة الفسيحة، وواصل المسلمون سيرهم نحو القافلة، لكن مشكلة وقعت، وأمراً خطيراً لم يحسب له المسلمون حساباً؟ لقد علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ. لكن كيف؟

كيف علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشـام ندب المسلمين وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

فانتـدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسـول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك. فحذر عن ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه.

فخرج ضمضم بن عمرو سـريعاً إلى مكة)[2] ووصل إليها، فسمعت قريش (صوت ضمضم بـن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره، وحول رحله، وشـق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث.. الغوث)[3].

وتجمعـت قريش حول هذا المشـهد الفاجعة، وصرخـت بوجه ضمضم بن عمرو تسأله عن تفاصيل أكثر، وثارت مكة وارتجت، وتعالى الضجيج، وسلت السيوف، ونسى

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١٨١٧).

(٢) رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٦-١٨٢ من طريقين: مرسل صحيح إلى عروة، والثاني عن ابن عباس وابن إسحاق لم يذكر أسماء شيوخه وهم جمع، ويشهد له ما بعده.

(٣) حديث حسن. مر معنا عند الحديث عن رؤيا عاتكة وهو جزء من حديث الرؤيا.

العباس شـــجاره مـــع أبي جهل، واحتقن الطواغيت.. طواغيـــت قريش كلهم.. كلهم إلا واحداً أذهله الخبر، فأصيب بالهلع.

إنه لا يدري ما يفعل، ولا كيف يتصرف؟ إنه يرتجف ويرتجف.. يهرول مسرعاً إلى منزله، وعندما يصل لا يبحث عن ســـلاح، ولا يفتش عن درع ورمح.. إنه خائف جداً، ويكاد يموت من الخوف.

لم يكن ســـبب ذلك الخوف تجارة له مع أبي ســـفيان يخشى أن يفقدها، ولم يكن خائفاً على ســـمعة قريش. الأمر أشـــد وأخطر.. إنه يحس بدنو أجله.. ويرى في كل شـــبر خارج مكة قبراً مشـــرعاً ينتظره. إنه أمية بن خلف، وهو لا يستطيع التفريق بين من يقول: الغوث.. الغوث، أومن يقول: الموت.. الموت..

كأني به وهو يستمع إلى صراخ ضمضم يتذكر صراخ سعد بن معاذ في ذلك اليوم المشـــئوم، عندما كان ســـعد بن معاذ في نزاع مع أبي جهل، بعد أن رفض أبو جهل أن يطوف ســـعد بالكعبة وهو من أنصار محمد ﷺ، وعندما حاول أمية إسكات سعد بن معاذ رضي الله عنه.. بشـــره سعد بنهاية تصطك لها الركب.. بشره سعد بكارثة فقال له: (دعنا منك يا أمية فوالله لقد ســـمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك. قال أمية: بمكة؟. قال سعد: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شـــديداً، فلما رجـــع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تـــري إلى ما قال لي ســـعد..؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعـــم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة؟ فقال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة)[1].

واليوم هاهي قريش غاضبة وســـتخرج كلها، ولن يتخلف منها أحد، فهل سيتخلف سيد من ســـاداتها، وما عذره؟ هل سيقول: إني خائف؟ هل سيقول: إن محمداً صادق في قوله ووعده؟ حائر أمية .. حائر.. يلتفت إلى امرأته يحدثها أنه قد (جاء الصريخ. قالت له امرأته: أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟

قال أمية: فإني لا أخرج)[2].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي (٣-٢٧).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٢٦).

إذا فقد قرر أمية البقاء في مكة وعدم الخروج، فلتذهب القافلة إلى الجحيم، ففي خروجه سفر إلى الموت على يد محمد وأصحابه. لكن هل سيتركه أبو جهل ينعم بالبقاء؟ لا أظن ذلك، فأبو جهل الآن كالمجنون.. يجول في شوارع مكة، كالثور الهائج يثير الغبار في أزقتها.. يطرق أبوابها. لن يتركه أبو جهل ينعم بالطعام والشراب والرقاد ليواجه الموت نيابة عنه، لقد (استنفر أبو جهل الناس فقال: أدركوا عيركم. فكره أمية أن يخرجه، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعيرٍ بمكة. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره فلم يزل بذلك)[1] كلما نزل منزلاً ربط بعيره السريع تأهباً للهرب والفرار.. لم يزل كذلك خائفاً، يرى الموت خلف الصخور وبين الشجر.. يرى الموت يسيل في الوادي.. يراه مقبلاً مع قطع السحاب الصيفية، وفي المساء يرى الظلام عباءة يرتديها الموت، والنجوم عيون تحدق به.

مضوا خلف أبي جهل مصطحبين المغنيات والخمر والموت، حتى وصلوا إلى أرض بين مكة والمدينة يقال إنها كانت (موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام)[2] واسم هذه الأرض:

بدر

وقد قرر أبو جهل ومن معه تحويل أرضها إلى ساحةٍ لاحتفالٍ صاخب، سيجعلون أرض بدر خمراً ونساءً، ورقصاً ومقابر لمحمد وأصحاب محمدٍ، سيجعل أبو جهل من تلك الأرض احتفالاً غير عادي.. احتفالاً لقريش وحدها.. في موعد هو الذي يحدده، وقد وصف الله عز وجل ذلك الخروج وتلك الغطرسة بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠).
(٢) تفسير الطبري (تفسير سورة الأنفال).